التدين التزام وسلوك

الاخلاص لله ورسوله وعباده

يقول الله تعالى ﴿ إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ، الا لله الدين الخالص، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار ﴾

(الزمر ٢ ، ٣) .

لقد قامت عقيدة الإسلام على التوحيد الخالص الذى لا يختلط بشائبة من الشرك وهذا التوحيد هو الأساس الذى يقوم عليه بناء العقيدة ، وهو المدخل الذى لا بد أن يمر به كل من هداه الله إلى هذا الدين ، فيؤمن به عقيدة تسكن القلب ، وقولا يتحرك به اللسان ، وعملا تترجم عنه الجوارح .

وجوانب التوحيد تتضح فى توحيد المعبود ، وهو الله عز وجل حيث يقول ﴿ وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾

(٥ البينة).

وفى توحيد العباد فى أمة واحدة ﴿ إن هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم ﴾

(٥٢ المؤمنون).

وهذه الأمة الواحدة لها اتجاه واحد تمثله القبلة التى يتوجه اليها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾

(١٤٤ البقرة)

بل أن التوحيد الذى يجعله الاسلام ركيزة للعقيدة واساسا للدين يتطلب إلى المسلم أن (يوحد) عدوه كما وحد أمته ، فعدو الاسلام عدو المسلمين فى كل مكان وزمان ، من ليس منا فهو علينا ، وملة الكفر واحدة .

والتوحيد بهذه النظرة الشاملة هو إخلاص الدين لله ، وإخلاص العبادة له وحده

سبحانه وتعالى ، وإذا قلنا ان الإسلام دين التوحيد فقد قلنا إنه دين الإخلاص ، وأن اخلاص العبد يفرض عليه أن يخص عبادته معبودا واحدا لا يشرك به شيئا ، ومن هنا سميت إحدى سور القرآن بسورة (الاخلاص) وصفها الرسول ﷺ بأنها تعدل ثلث القرآن

وما دام الإخلاص أساس العلاقة بين الله وعباده ، وهم بهذا الاخلاص يعبدونه ولا يشركون به شيئا ، فإنهم يتعلمون من هذه العلاقة الربانية أن الاخلاص عبادة ، وانه ان كان وسيلة إلى حسن صلتهم بالله وقربهم منه عز وجل فإنه ينعكس بعد ذلك - على الإنسان فى سره وعلانيته ، ينعكس عليه فى سره فيكون بينه وبين نفسه مخلصا ، ويكون لبدنه مخلصا فيعطيه حقه ، ولا يحمله ما لايطيق ويكون لعقله مخلصا فيصونه ولا يضيعه بالمسكرات ، ويكون لمشاعره مخلصا فلا يفسدها بالعبث والرذيلة ، والإنسان إذا لم يكن مخلصا لنفسه فيصون عقله من التردى فى الضلال ، ويكبح هواه من التردى فى الرذيلة ، ويحفظ آدميته من التردى فى الحيوانية .

إن لم يفعل ذلك فليس بمخلص لنفسه ، ومن ثم فإنه لا يستطيع ان يكون مخلصا للناس ولقد جاء فى هذا اللون من الإخلاص النفسى سؤال جبريل للنبى - عليه السلام - والصحابة جلوس حول الرسول يتعلمون ، فيسأل جبريل رسول الله . اخبرنى عن الإحسان ، فيقول رسول الله : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك [1] ، وهذا لون من الإخلاص يتميز بالتجرد فى العبادة ، والصدق فى خشية الله ومراقبته ، وينعكس الإخلاص الذى أمر به المسلم فى عبادته على علاقته بالناس فإخلاصه هو أساس هذه العلاقة التى لا تحركها منفعة ، ولا يحكمها هوى ، وحبه للناس حب فى الله ولله ، والمتحابون فى الله - عز وجل - كما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام - على منابر من نور يوم القيامة ، فيفزع الناس وهم لا يفزعون ن ويخاف الناس وهم لا يخافون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وفى الاخلاص لله ولرسوله ولعباده يجد المسلم حلاوة الإيمان فى قلبه ، يقول نبينا عليه الصلاة و السلام (ثلاث من

---

[1] رواه مسلم .

كن فيه وجد حلاوة الإيمان فى قلبه : أن يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وان يكره ان يعود إلى الكفر كما يكره ان يقذف فى النار ، فحبه لله ورسوله اخلاص لهما ، وحبه للمرء هو ثمرة هذا الإخلاص ، وكراهيته للعودة إلى الكفر ترجمة نفسية لهذه العبادة .

ويقتضى الإخلاص فى المودة أن يحرص المؤمن على أخيه غائبا أو حاضرا ، فهو يحفظ غيبته ويصون سيرته ، ولا يذكره الا بخير ، وفى حضوره يمحضه النصح ويعينه على المعروف ، ويؤيده إذا أصاب ويرشده إذا ضل ، فإن كثيرا من ألوان الصداقات التى نراها فى مجتمعاتنا الحديثة تقوم على المجاملة والمداراة يرى الصديق عيبا فى صديقه فلا يدله عليه حتى لا يغضبه ، ويجده احيانا على الطريق الغواية فيجاريه حتى يستديم مودته ، وكثيرا ما يمدح الصديق صديقه بما ليس فيه حتى يؤكد له حبه وهذالون من الخداع لا يتفق والاخلاص فى الصداقة ، فإن الصداقة من الصدق ، وإن الصدق ينقى صفحة الإنسان ويجعل ظاهره كباطنه ، وان أخا لك يواجهك بكلمة الحق فيقومك ، خير من قرين يداهنك ويجاريك فيفسدك وينسيك نفسك ، فمن دلك على عيبك فقد دعاك إلى الاقلاع عنه ، ومن جارك فى معصية فإنما هو عدو فى ثياب صديق ، وهو يتخلى عنك حين تلم بك النوائب ويترل بك المكروه ﴿ إذ تبرأ الذين أتبعوا من الذين من الذين إتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾

(البقرة ١٦٦).

ولقد دعا القرآن إلى صدق التناصح فى قوله عز وجل ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين أمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾

(سورة العصر) .

ودعا الرسول كذلك إلى هذه الفضيلة بقوله :"" رحم الله امرءا اهدى إلى عيوب نفسى ""،. وافتتح بها أبو بكر خلافته حيث قال : (إن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى) ، ذلك لأن اخلاص المرء فى إبعاد اخيه عن

الباطل يعادل إخلاصه فى إعانته على الحق .

ومن هنا حقق الإسلام مجتمعا رشيدا تسوده الفضيلة وتحكمه المبادئ ، وأرسى نظاما اخلاقيا يسوس الأرض بشريعة السماء ، وأقام دولة عادلة تحقق الأرض فى ربوع الأرض وتبعث الأمن فى نفوس البشر .. وبإختصار غرس الاخلاص فى النفوس ، فجنى السعادة فى الحياة .

ولا يعانى المجتمع الإنسانى المعاصر شيئا بقدر ما يعانى من فقدان الإخلاص فى نفوس الناس ، فعلى مستوى الفرد بينه وبين نفسه يفقد أمنه ، وتوازنه النفسي ولا يقدر كيانه حق قدره ، فتختل ثقته فى نفسه حتى يستبد به الغرور ، وعلى مستوى الأفراد فى معاملاتهم يضيع الإخلاص ، فيحل الشك محل الثقة ، وتطرد عوامل الخوف مشاعر الأمن ، وتحتل الكراهية مكان الحب فى القلوب .

وعلى مستوى الدول فى علاقتها يزول الإخلاص فتنظر كل دولة إلى الأخرى بعين الحذر والتوجس ، وتتسابق الدول إلى تكديس السلاح ، والإستعداد للحرب رغم ما تعانيه فيها من ويلات ودمار ، ولكنها حين فقدت الإخلاص فقدت السلام ، وحين فقدت السلام فقدت الإحساس بالأمان .

والإنسان بذلك يحارب نفسه ، ويقضى على المعنى الإنسانى المودع فيه ويتنكر لأسمى ما ركبه الله بين جنبيه وهو القلب ، ذلك الوعاء الذى يحمل الخير وينشره بين الناس ، وينبض فى الضلوع ولكنه يتسع لخالقه ، ففى الحديث القدسى ومعناه (ما وسعنى أرضى ولا سمائى ، ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن) .

ومن هنا ندرك حكمة الإسلام حين عنى أولا بتربية الفرد المسلم ، فهو يبنى عقيدته على الإخلاص ويربى نفسه على التجرد ويوقظ مشاعره على المراقبة وخشية الله .

فإذا وجد الفرد الصالح كان لبنة نظيفة فى بناء الاسرة الصالحة وإذا تكونت الأسرة الصالحة وتماسكت حلقاتها بأسر صالحة على طرازها كان من هذا التلاحم مجتمع

إنسانى لا تهتز الثقة فى نفسه أو كما وصفه نبينا عليه السلام (لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه) .

والإخلاص فى التصور الإسلامى على هذا الأساس - ليس درسا يلقى ليحفظ أو فلسفة تشرح لتفهم ، أو كلمة تقال لتعرف ، وإنما هو حياة تصاحب الإنسان فتمتد إلى مشاعره تجردا للحق ، ومراقبة لله ، وهو سلوك يمارسه المؤمن حين يمارس حياته سواء كانت عبادة لله ام معاملة للناس ، وهو معرفة للحق والرجوع اليه والنزول على شريعته ، ولقد وصف القرآن إكتمال الإيمان فى نفوس المؤمنين وتمام الإخلاص فى نفوس المخلصين فقال ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بيهم ، ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ .

(٦٥ النساء)

فالمؤمنون بتجردهم واخلاصهم يحكمون الحق الذى يمثله نبيهم عليه السلام ، ويطردون كل إثارة للحرج النفسى بعد ان يقضى بينهم الرسول بالحق الذى يراه وقد لا يرونه ، ثم يسلمون تسليما كاملا بهذا الحق ، وقد رضيت به نفوسهم واطمأنت اليه مشاعرهم ، فألتزم به سلوكهم واضفوه على معاملاتهم .

فالإخلاص إذا تربية نفسية ، وترويض روحى وتدريب عملى ، ولئن كان هذا طريقا طويلا ، فإنه هو الطريق الذى يصل بها الأرض بالسماء ، ويحكم الحياة بالعدل ويهيئ الدنيا للآخرة .

ولقد رسمه الإسلام منهجا واضحا وطريقا مستقيما :- يبدأ بعلاقة الإنسان بربه فيخلص له العبادة ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ﴾.[1] . ويتجرد فى خشية ومراقبته فلا يخشى غيره ولا يرهب سواه ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله ﴾ [2] .

---

[1] الأنعام : ١٦٢

[2] الأحزاب : ٣٩ .

وإذا خشى الإنسان الله و لم يخش سواه فلا خوف عليه اما إذا خشى غيره ، فقد طارت نفسه شعاعا فأخافه كل مخلوق ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ (١) .

هذه هى الخطوة الأولى فى المنهج الذى رسمه الإسلام للإخلاص أن يتجرد المؤمن من عبادته فيكون مخلصا كما لله الدين الخالص .

اما الخطوة الثانية فهى أن يخلص الإنسان لنفسه فيعرف طريق الخير ويتبعه ويعرف طريق الشر ويبتعد عنه ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ (٢)

والخطوة الثالثة أن يلزم الإنسان الإخلاص للناس : ويعنيهم على الخير إذا عرفوه ويدعوهم إلى الطريق المستقيم إذا تركوه ، ويحرص على بقاء مودتهم كما يحرص على حسن معاملتهم ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى احسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم ﴾ (٣) .

وإذا تماسكت حلقات هذه الخطوات ، وإذا التزم الفرد بهذا المنهج إيمانا وتطبيقا كانت ثمرته مجتمعا مخلصا يسعد به الناس وتستقر به الإنسانية ، وتأمن فى ظله دول العالم والإخلاص بذلك يكون صلة العبد بربه فيكون تجردا وتوحيدا ، ويكون صلة الإنسان بالإنسان فيكون صداقة ومودة ويكون صلة المجتمعات بالمجتمعات فيكون تكافلا ورحمة ، ويكون صلة الدولة بالدولة فيكون أمنا وسلاما .

ومن وراء ذلك إيمان يحرس هذه الصلات بأن الله مطلع على خلجات الإنسان ، ويعلم ما توسوس به نفسه ، وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم

---

(١) آل عمران : ١٧٥ .

(٢) الشمس : ٧ - ١٠ .

(٣) فصلت : ٣٤ - ٣٥ .

القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان مثقـــال حبة من خـــردل آتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ [1] .

المؤمنون حقا

﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناوعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقـــون ، اولئـــك هـــم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ [2] .

الإيمان درجة يبدأها المؤمن تسليما بالشهادتين ، ثم يتدرج فيها صعودا بقدر مـــا تتسع له الطاقة وبقدر ما تشف به الروح وما يزال العبد يتقرب إلى ربه حتى يحبه ، فـــإذا أحبه كان سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويـــده الـــتى يبطـــش بهـــا ، ورجلـــه التى يمشى عليها ، ولئن استعاذ به لاعاذه ولئن سأله لأعطاه .

وان الله ليقبل إيمان المؤمن وهو على أول درجات الإيمان ، وهـــو - ســـبحانه وتعالى - وأن كان يريد لعبده أن يصل إلى أعلى هذه الدرجات ، فإنه لا يكلف نفسا الا وسعها ، ولا يحمل القلب الا ما يطيق .

ولقد ذكرت هذه الآيات صفات المؤمنين ، فجعلها خمس صفات : ـــ

الصفة الاولى فهم ﴿ إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ إجلالا لذكـــره ، وأمتثـــالا لأمره ، وخشية من عقابه ، فإن هذه الكلمات تجمع كل المعانى النفسية المعبرة عن الطاعة والخشوع ، ومثلها فى قوله عز وجل ﴿ وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهـــم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [3] . وهذا الشعـــور بالوجل يرقق القلب ويرهف المشاعر ويقرب الإنسان من الله ، ولقد قال أحد الصالحين : إنى لأعلم متى يستجاب لى ، قالوا ومن أين لك ذلك ؟

---

[1] الأنبياء : ٤٧ .

[2] الأنفـــال : ٢ - ٤ .

[3] الحـــج : ٣٤ - ٣٥ .

قال : إذا أقشعر جلدى ، ووجل قلبى وفاضت عيناى ، فذلك حين يستجاب لى .

وكأنها لحظة الإلهام التى يعينها عمر رضى الله عنه حين يدعو ربه ، فهو يقول " أنا لا أحمل هم الاجابة ، ولكن أحمل هم الدعاء ، فإذا ألهمت الدعاء كانت الإجابة معه " ، أى ان القلب يتحرك قبل الدعاء ، فيكون إلهام تقترن به الإجابة بالدعاء .

وهؤلاء الصالحون يجدون الوجل فى قلوبهم إذا ذكروا عظمة الله وسلطانه وجلاله ، ولكن ليس فزعا ولا رعبا ، وإنما هو خشوع وتقرب واطمئنان إلى حسن الصلة بالله ، يؤيد ذلك قوله تعالى فى موضع آخر ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [1] .

الصفة الثانية من صفات المؤمنين أنهم ﴿ إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾ .

وظاهر الآية يقتضى أستماعهم للقرآن وهو يتلى ، فيتدبرون معانيه ويخشعون لتلاوته ، فيزدادون إيمانا إذ الايمان يزيد وينقص ، أو يزدادون عملا بمقتضى هذا الإيمان ، واستعدادا لكل ما يتطلبه الإيمان من آداب النفس .

ولقد كان الرسول ﷺ يرتل القرآن ، ويحب أن يسمعه أيضا من بعض اصحابه ، فيتأثر للأستماع كما يتأثر للترتيل .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ " " اقرأ على القرآن فقلت : يارسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إنى أحب ان اسمعه من غيرى "" ، فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ قال حسبك الآن ، فالتفت فإذا عيناه تذرفان "" [2] .

فإذا رسول الله ﷺ يتأثر استشعارا لعظم المترلة التى اكرمه الله بها ، والمؤمنون يتأثرون إيمانا بوعد الله وآياته ، فيزداد إيمانهم ، وهذه الزيادة ثابتة فى آيات أخرى كقوله

---

[1] الرعد : ٢٨ .

[2] متفق عليه .

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا ﴾[1] .

وقوله ﴿ هو الذى انزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾ [2] .

وأين ذلك من الحلقات القرآنية التى تذاع فى هذه الايام وكأنها حفلات للطرب لا مجالس للذكر يتغنى بها بعض القارئين بآيات من القرآن الكريم فيراعون قواعد التطريب أكثر مما يراعون من جلال المعنى ويلتف حولهم جمهور من المستمعين الذين يشدهم جمال الصوت فيصيحون استحسانا لكل مقطع صوتى ، فلا يفرقون بين آيات الوعد وآيات الوعيد ، ولا تعنيهم ان تعرض الآيات صورة للجنة أو صورة للنار .

ولقد كان ابو حمزة الشارى يصف اصحابه بقوله (إذا مر احدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا اليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه) ، ولقد ذكر الله ذلك فى الأثر بقوله فى آية اخرى ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ [3] .

وأما الصفة الثالثة فهى قوله تعالى ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ والتوكل على الله أعلى مقامات التوحيد ، لأنه تفويض الأمر لله ، وإخلاص العبودية له دون سواه ، والأطمئنان إلى قضائه وقدره والرضا بهما والتسليم لهما ، ولقد روى ابو هريرة رضى الله عنه قول الرسول ﷺ : "" يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير "" [4] . أى ان قلوبهم رقيقة من حسن صلتهم بالله وتوكلهم عليه .

ولما كان معلوما فى الشرع والطبع والعقل أن للإنسان كسبا اختياريا ، فإنه

---

[1] آل عمران : ١٣٧ .

[2] الفتح : ٢٣ .

[3] الزمر : ٢٣ .

[4] رواه مسلم .

يجب عليه ان يسعى بجهده لينال نتيجة عمله ، ثم يرضى بقضاء الله ، وهذا هـــو حســـن التوكل على الله ، أما ترك الاسباب وانتظار النتائج دون مقدمات ، وتسمية ذلك توكلا فإن هذا من الجهل بطبيعة التوكل ، والجهل بسنن الله التى لا تتحول ولا تتغير ، فـــإن الله قد أمر عباده بالعمـــل ، وأعد لهم الثواب على الإحسان وربط الرزق بالسعى حيث قال ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور ﴾ .

وأما الصفة الرابعة ففى قوله تعالى ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ فـــالصلاة اتجـــاه بالقلب إلى الله ، وخشوع بالجوارح لعظمته ، وهى إظهار لحاجة المخلـــوق وافتقاره إلى خالقه ، من ثم فهى فى خلاصتها دعاء وتبتل .

وهؤلاء المؤمنون الذين يقيمون الصلاة ، يرتفعون بها عن المعانى المادية كـــالتزام الوقت ، وضبط الحركات ، واكتمال الهيئة ، ويجعلونها فى المقـــام الأول توجـــها إلى الله تعالى ، وخشوعا قلبيا لعظمته وجلاله هذه الحقيقة الخاشعة القائمة فى الداخل تنعكس عل الهيئة الخارجـــية ، فتعنو الجباة وتخشع العيون ، وتستكين الجوارح .

وإذا لم يكتمل فى الصلاة هذا المعنى فلا يصدق على المصلى انه اقام الصـــلاة ، ولكنه قد يؤدى حركاتها ولا يدرك معناها فيكون من الغافلين .

ولقد قصر كثير من المسلمين فى هذا العصـــر حتى فرطـــوا فى اداء الصـــلاة أو أهملوها ، و لم تعد الصلاة تحتل جانبا من أوقاتهم أو تشكل جزءا من جوانـــب حيـــاتهم ويبدو هذا حين تنعقد بعض المؤتمرات أو الاجتماعات فتشغل وقتين أو اكثر من أوقـــات الصلاة ، ولا تدع للمجتمعين فرصة لأداء الفريضـــة ، وكـــأن الصـــلاة لا تـــؤدى الا والمسلمون فارغون ، أو كأنها إن اقيمت فإنها تشغلهـــم عن قضاياهم التى تمـــلأ فـــراغ أوقاتهم ، مع أنها هى العبادة التى تحدد السلوك وتضبط الحياة ، فالمسلم فى صلاة دائمـــة تنعكس على معاملاته مع الناس والحياة أمامه مسجد كبير يستمد جلالـــه مـــن جـــلال المحراب الذى يؤدى فيه الصلاة ، ومن أجل ذلك فقط جعل الاسلام الصلاة ، عماد الدين ووصى المسلمين بإقامتها والاصطبار عليها لأنها من أبرز ملامح الخشوع ، من أهم معالم

الإيمان ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ [1] .﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين ﴾ [2] .

وأما الصفة الخامسة ففى قوله تعالى ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فإن الإنفاق فى سبيل الله من أظهر علامات الإيمان ، وان الرزق الحلال الطيب ينفق فى وجوهه المشروعة الصالحة .

والآية هنا تحث المؤمنين على ان يتحروا الحلال ، وعلى أن يطلبوا الرزق من وجوهه المشروعة فإن الله طيب لا يقبل الا طيبا ، وان الرزق لا يجرى الا على طالبيه بوسائل الطلب التى دعا القرآن اليها وحث على الاخذ بها .

كما حثتهم الآية على الإنفاق من هذا الرزق ما دام قد تحصل لهم ، فإن كثيرا من الناس يأتون بضروب العبادات البدنية كالصلاة والصوم ، حتى إذا عرضت لهم من الدواعى ما يقتضى البذل والانفاق قبضوا أيديهم ، وبخلوا برزق الله على عباد الله .

وهكذا يكون الانفاق محك اختبار الإيمان ، ومقياس الصدق فيه ، لأنه بذل للمال الذى تتعلق به النفوس ، ومقاومة للنفوس التى جبلت على الشح ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ فمن وجد فى نفسه داعية لبذل أحب الاشياء اليه وهو المال ، فهو مستعد لقبول هداية القرآن ، والامتثال لأوامره .

وحين تجتمع هذه الصفات فى نفوس المؤمنين فإن الله يقول فيهم ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ .

القصد حتى فى العبادة

يقول الله تعالى ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ [3]، ويقول ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾.[4]

---

(1) طه : ١٣٢ .
(2) البقرة : ٤٥ .
(3) الحج : ٧٨ .
(4) البقرة : ١٨٥.

لقد جاءت الأديان للإنسان : تخاطب قلبه بالهداية لينعطف اليها ، وتخاطب عقله بالفكر ليتدبر فيه ، وتخاطب طاقته بالتكاليف ليقدر على حملها ، ولقد جاء الاسلام خاتم الاديان ، كما جاء رسوله خاتم الرسل ، فكان هذا الدين الخاتم تجميعا لهدايات الاديان وخلاصة لإرشادها ، وكان هو الحنيفية السمحة ، التي جاء بها رسول الله ﷺ هداية للباحثين عن الدين الخالص ، وهداية للحيارى الذين فقدوا الطريق وكان النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام رسولا تلتقى أصوات الأنبياء السابقين فى صوته وإماما تجتمع تعاليمهم فى تعاليمه ، وهو كما قال عن نفسه "" إنما انا رحمة مهداة "" ، وكما قال عنه ربه ﴿ لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم . حريص عليكم . بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ [1] .

وهاتان الصفتان – الرأفة والرحمة – من اعظم صفات الربوبية غير الخاصة بالله عز وجل الا فى كمالها ، ورأفته ورحمته ﷺ صفات نفسه ، وانه كان يرفق بالناس ويرحم ضعيفهم حتى قبل بعثته ، ثم حمل هذه الرسالة إلى الناس وهو مزود بفضائله النفسية فخاطب منهم القلوب ، ودعاهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فكان رفقه وسيلة إلى جذب قلوبهم ، وكانت رحمته وسيلة إلى تأليف مشاعرهم وقال له ربه عز وجل ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لإنفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم .. وشاورهم فى الأمر ﴾ [2] . وإرساله رحمة للعالمين وللمؤمنين بيان لحكمة رسالته وفوائدها فيما اشتملت عليه من الحق والعدل والخير التى هى من اسباب رحمة الله ومثوبته ورضوانه لمن اهتدى بها .

وإذا كانت السماحة فى طبيعة هذا الدين ، وإذا كانت الرحمة فى طبع الرسول ﷺ فإن الذين تخاطبهم تعاليم الإسلام ، والذين تلقى عليهم تكاليفه ، بقدر الله فيهم الطاقة الانسانية فيكلفهم بما يطيقون، ويعرف فيهم الضعف البشرى فلا يحملهم ما لا يطيقون ،

---

(1) التوبة . ١٢٨ .

(2) آل عمران : ١٠٩ .

لأنه سبحانه ﴿ لا يكلف نفسا الا وسعها ﴾ ولقد جعل القرآن من ملامح المؤمنين قولهم لربهم ﴿ ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مـــا لا طاقـــة لنا به .. واعف عنا .. واغفر لنا وارحمنا ﴾ [1] .

فهم يستعفون الله ابتداء من التكاليف الشاقة التى تتجـــاوز حـــدود طاقتـــهم ، ويطلبون منه ان يحملهم اليسير الذى يسهل عليهم حمله ، وان يوفقهم لحمل ما كلفهم به حتى لا يتعرضوا للتقصير الذى يوجب العقوبة .

وإذا جاز للمؤمنين أن يسألوا الله التخفيف فيستجيب لهم ويخفف عنهم ، فـــلا يجوز لبعضهم ان يتكلفوا المشقة وقد عافاهـــــم الله ، ولايجوز ان يطلبوا العسير وقـــد يسر الله عليهم .

فعن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ان الدين يسر ، ولن يشاد الدين احد الا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشــــروا ، واستعينـــوا بالغـــــــدوة والروحــة وشئ من الدلجة " [2] .

ومعنى ذلك ان تستعينوا على طاعة الله عز وجل بالأعمال فى وقت نشـــــاطكم وفراغ قلوبكم بحيث تستلذون العبادة ولا تسأمون وتبلغون مقصدكم ، كما أن المســـافر الحاذق يسير فى هذه الأوقات ويستريح هو ودابته فى غيرها فيصل إلى مقصده بغير تعب . وما ينفيه الله تعالى من الحرج عن عبادة ، إنما هو قاعدة من قواعد الشريعة ومقصد مـــن مقاصدها الجليلة .

ولقد خاطب الاسلام المسلمين بالتكاليف ليرفع هممهم عـــن القعـــود ويرفـــع نفوسهم عن الرخاوة ولكنه كان رفيقا بهم فى هذه التكاليف ليرفع عنهم المشقة ، وليبعث فى نفوسهم الأمل بالقدرة على الطاعة.

وأن القيام بما فى طاقة الانسان من التكاليف ليس من الحرج فى شئ ، وقد نفى

---

[1] البقـــرة : ٢٨٦ .

[2] رواه البخارى .

الله الحرج عن المؤمنين بعد تكليفهم بالجهاد فى سبيله حق الجهاد ، وهو بذل الجهد لإقامة سنن الله وحكمته ، ولا يصعد الانسان إلى مستوى الكمال الا ببذل الجهد فى معالى الأمور .

وأما الحرج فهو الضيق والمشقة فيما ضرره ، أكبر وأرجح من نفعة كالإلقاء بالأيدى إلى التهلكة وكأستعمال المريض الماء فى الوضوء أو الغسل مع خشية ضرر ، ولقد صرح القرآن الكريم بعد بيان فرضية الصيام والرخصة للمريض والمسافر بالفطر بأنه يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر.

ولقد دخل النبى ﷺ المسجد ، فإذا حبل مشدود بين الساريتين فقال : ما هذا الحبل ؟ قالوا: هذا حبل لزينب ، فإذا فترت تعلقت به ، فقال : النبى ﷺ : حلوه ،ليصل احدكم نشاطه ،فإذا فتر فليرقد ، وقال : إذا نعس احدكم وهو يصلى فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإنه إذا صلى وهو ناعس لا يدرى لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه [1] .

وهذا الحديث يضرب لنا المثل على طبيعة الإسلام السمحة ، وعلى تكاليفه القائمة على التيسير وعلى علاقة العبد بربه من حسن صلة تحددها طاعة العبد ورحمة الله .

ولقد بنى العلماء على أساس نفى الحرج والعسر واثبات إرادة الله تعالى اليسر بالعباد فى كل ماشرعه لهم من عدة قواعد وأصول ، وفرعوا عليها كثيرا من الفروع فى العبادات والمعاملات منها : إذا ضاق الأمر اتسع ، وهو قريب من قوله تعالى ﴿ ان مع العسر يسرا ﴾ والمشقة تجلب التيسير ،وهو متأثر بقوله تعالى ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية ﴾ [2] . والضرورات تبيح المحظورات ، وهو مستمد من حكمة الله فى قوله ﴿ فمن اضطر فى مخمصه غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴾ [3] .

---

(1) متفق عليه .

(2) البقـرة : ١٤٨ .

(3) المائدة : ٣ .

وهذا يدل على أن مقياس حسن الصلة بالله ليس فى كثرة العبادة التى تشق على الإنسان ، ولكن فى إخلاص نيته وصدق اتجاهه ، ولقد كانت صلاة النبى قصـــدا بـــين الطول والقصر ، كما كانت خطبته قصدا [١] ، وقد ذم المتشـــــددين المتعمقين فى غير موضع التشديد بقوله "" هلك المتنطعون " قالها ثلاث [٢] .

ولقد ناط الفقهاء معرفة المشقة التى تجلب التيسير وتكون سبب التخفيف بعرف الناس فيما لا نص فيه ، وهذا لا يعرف إلا بمعاشرة الناس وتعرف شئونهـــم وأحوالهـــم وقدرتهم على حمل الأعباء والقيام بالتكاليف ، وهذه القدرة لا تحددها طاقة إنسان واحد قد يكون قويا وقد يكون ضعيفا ، ولكن يحددها استقرار الطاقة العامة للإنسان ، والمعرفة الواعية بما يستطيع وما لا يستطيع فلا تكون قوة القوى حكما على ضعف الضعيـــف ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : أخبر النبى ﷺ أنى أقـــول : والله لأصومن النهار ، ولأقومن الليل ما عشت ، فقال رسول الله ﷺ "" أنت الذى تقول ذلك "" فقلت له قد قلته بأبى أنت وأمى يا رســـول الله قال : فإنك لا تستطيع ذلك فصم وافطر ، ونم وقم ، وصم من الشهـــر ثلاثة أيام فإن الحسنة بعشرة أمثالها ، وذلك مثل صيام الدهر " ، فشددت على نفسى قلت : يا رسول الله إنى أجد قوة ، قال صم صيـــام نبى الله دواد ولا تزد عليه ، قلت : وما كان صيام داود ؟ قال : نصف الدهر ، فكـــان عبد الله يقول بعدمـــا كبر : يا ليتنى قبلت رخصة رسول الله ﷺ [٣] .

وقوله ذلك يفسر قول النبى "" لن يشاد الدين أحد الا غلبه " " ، فقـــد يشتـــد حماس المسلم ، ويحمله وجدانه الإسلامى على الاجتهاد فى العبادة ، وتحمل المشـــاق فى سبيل ذلك ، فهو يقضى النهار صائما ، ويسهر الليل قائما ، ويلتزم بألوان من الرياضات الروحية لم يلزمه بها الإسلام ، وقد يكون فى اتجاهه هذا حسن القصد سليم النية ، فـــهو

---

[١] من حديث رواه مسلم عن جابر بن سرمة .

[٢] رواه مسلم .

[٣] رواه الشيخان .

بذلك مشكور على قصده الحسن ، محمود على نيته السليمة ، ولكنه إن اندفع فى الاجتهاد بعض الوقت بحماسته ، فهو مردود عن ذلك بقية الوقت بطاقته ، ولئن ساعدته على المبالغة فى العبادة فطرته فلقد خذلته عنها قدرته ، فلم يستطع أن يواصل السير ، و لم يقدر على تحقيق القصد ، وقد ينتج عن اجتهاده أولا ان يتعب اخيرا ، وقد يترتب على تعبه ان يفتر عزيمته ، وقد يترتب على هذا الفتور ان تقعد به الهمه فيتراخى ويتكاسل وبدلا من نشدانه الكمال فإنه يعجز عن أداء الواجب المطلوب وبذلك فهو (المنبت .. لا أرضا ولا ظهرا أبقى) ومن أجل ذلك ندرك حكمة الإسلام البالغة فى الترخيص لعباده فى أداء العبادات فىبعض الحالات ، وهذه الحكمة إن غابت عن العباد فلن يستطيعوا الوصول إلى مراميها ، فإنها لا تغيب عن الله سبحانه وتعالى فهو الذى خلق الإنسان وهو أعلم به فقد رخص للمسافر ورخص للمريض ، ورخص للخائف فى العبادات وقد لا يدرك هؤلاء حكمة الترخيص فى بعض الاحيان ، ولكنهم ان لم يدركوها مبكرين فقد يحسون بها متأخرين .. وحين ذلك يحسون أن الله هو احكم الحاكمين ، فعن على بن أميه قال : (قلت لعمر بن الخطاب : أرأيت إقصار الناس الصلاة وأنما قال عز وجل ﴿ إن خفتم ان يفتنكم الذين كفروا ﴾ فقد ذهب ذلك اليوم ؟ فقال عمر : عجبت مما عجبت منه فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته [1] . فهنا نجد الرجل قد فهم أن الرخصة مقيدة بقيد هو الخوف ، وذلك مصداق لقوله تعالى ﴿ وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة .. ان خفتم ان يفتنكم الذين كفروا ﴾ [2] .

ولكن الرسول ﷺ يبين لنا ان الرخصة صدقة ، وان الصدقة عامة فى الخوف وفى الأمن ، وأن الله يحب ان تقبل منه صدقته ، وأن نحمده تعالى على رحمته وييسر عبادته

---

[1] رواه الجماعة .

[2] النساء : ١٠١ .

وإذا كنا نبغى بعبادتنا وجه الله ، ونتوجه بها ونطلب رضاه وإذا كان هو سبحانه الذى خفف عنا حيث علم فينا ضعفا ،فما بالنا نشق على أنفسنا ورحمة الله واسعة ؟ ! . وما بالنا نطلب العسير من العبادة والدين يسر ؟! .

إن المؤمن إذا دوام على عبادته القليلة فأحبها وتعلق بها ، خير منه إذا شق على نفسه بعبادة كثيرة حتى تعب منها وملها ﴿ ان الله لا يمل حتى تملوا ﴾ [1] .

والمقصود بملل الله ان يقطع ثوابه عنكم وجزاء اعمالكم ، ولا يفعل ذلك حتى تملوا فتتركوا ، فينبغى لكم أن تأخذوا من الأعمال ما تطيقون الدوام عليه ليدوم ثوابه لكم وفضله عليكم .

ولقد خلق الله الملائكة يصلون ،﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ [2] ﴿ ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يأمرون ﴾ [3] .

ولكنه خلق البشر على الأرض وكلفهم برسالة فيها ، وجعل السعى على الرزق من العبادة ، وقال لهم ﴿ فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور ﴾ [4]

فطبيعة البشر غير طبيعة الملائكة وان كانوا جميعا خلق الله ورسالة البشر غير رسالة الملائكة وان كانوا جميعا عباد الله .

وقد روى أن حنظله وهو أحد كتاب رسول الله ﷺ دخل على رسول الله فقال: يا رسول الله نافق حنظله .. تكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا نراهما رأى العين ، فإذا خرجنا من عندك نسينا .فقال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده ، لو تدومون على ما تكونون عليه عندى لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم ، ولكن يا حنظله ساعة وساعة " ثلاث مرات "[5] .

---

(1) متفق عليه .
(2) الأنبياء : ٢٠.
(3) التحريم : ٦٠ .
(4) الملك : ١٥ .
(5) رواه مسلم .

وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى ﴾.

الثقة بالله وحسن التوكل عليه

﴿ إن الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم ﴾ (1) .

إن ايمان المؤمنين يصنع لهم جنة فى الدنيا قبل أن يصيروا إلى جنة الآخرة ، وان حسن صلته بالله يهيئ لهم حياة يتفيئون ظلالها حين تكون حياة غيرهم جحيما ، ويشعرون بلذاتها حين تكون حياة غيرهم معاناة ، وكيف لا وقد قالوا ﴿ ربنا الله ﴾ .. كلمة اهتزت لها مشاعرهم قبل أن تتحرك به السنتهم وسكنت بها قلوبهم قبل أن تسلم بها جوراحهم ، فإذا قالوها فقد نطق بها كل شئ فيهم ، وإذا تقربوا بها اخباتا إلى ربهم ، كان سمعهم الذى يسمعون به ، وبصرهم الذى يبصرون به ، ولئن سألوه لأعطاهم ، ولئن استعاذوا لأعاذهم .

ولقد سلك أنبياء الله ورسله هذا الطريق الآمن ، فواجهوا الدنيا الملحدة بإيمانهم الراسخ ، وقابلوا الحياة المضطربة بقلوبهم المطمئنة ، فإذا بقلوب الناس وكأنها فى ايديهم يشكلون – بإذن الله – كما يشاءون ، وإذا بأفئدة القوم وكأنها أوعية يصبون فيها كلمة الله التى هم بها مرسلون .

بهذا الايمان الراسخ واجه موسى وهارون جبروت فرعون ، وحين أحسا بالضعف البشرى قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، ثبت الله قلبيهما بالطمأنينة فقال : لا تخافا انى معكما أسمع وارى (2) .

---

(1) طه : ٣٠-٣٢ .

(2) طـه : ٤٥ - ٤٦ .

وكانت ثمرة هذه الثقة في الله أن أطمأن فؤاد موسى حتى لحظات الخطر حينما حوصر وقومه بين البحر بأمواجه الهائجة وفرعون بجنوده الجبارين .. حين ذلك ﴿ قال اصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ وحين ذلك أيضا أجاب موسى بيقين الواثق بالله ﴿ كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ ولم يكن يعلم كيف ستكون الهداية ، وكيف تتحقق النجاة حتى كان الله عند ظن عبده به فأوحى اليه ﴿ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ [1] . وبهذا الايمان يتسلح المؤمنون فلا يعنيهم أوقعوا على الموت أو وقع الموت عليهم ، ما داموا قد زرعوا فى نفوسهم ثقة بالله ، وقالوا :حسبنا الله ونعم الوكيل

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (حسبنا الله ونعم الوكيل) ، قالها ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا : ﴿ ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ [2] .

وهذه الثقة بالله تكون علامة على اكتمال الايمان فى نفس المؤمن ، لأنه بها يسلم أمره كله لله ، ويضع مصيره كله فى يد الله ويطمئن قلبه بها وإن خاصمته الدنيا كلها ، ولقد كان من أدعية الرسول ﷺ يتوجه إلى ربه بها (اللهم لك أسلمت ، وبك أمنت ، وعليك توكلت ، واليك انبت ، وبك خاصمت ، اللهم اعوذ بعزتك لا اله الا انت أن تضلني ،أنت الحى الذى لا تموت والجن والإنس يموتون)[3] .

والثقة أيضا يستمدها المؤمن من إيمانه بأنه على الحق وإن كان قليل الاعوان ، وبأن عدوه على باطل وإن كان كثير الإخوان ، فإنه ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ [4] .

ولقد كان القرآن يثبت هذه الحقيقة فى قلب النبى ﷺ بمثل قوله عز وجل :

---

[1] الشعراء : ٦١ - ٦٣ .

[2] رواه البخارى .

[3] متفق عليه ، وهذا لفظ مسلم واختصره البخارى .

[4] البقـــرة : ٢٤٩ .

﴿ فتوكل على الله إنك الحق المبين ﴾ ، فلماذا يتردد وهو يعلم انه على الحق ؟ ولمـــاذا يخاف وهو يعلم أنه فى رعاية الله ؟ ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾[1] يعد وحـــده زادا نفسيا يستعين به على مصاعب الطريق ، وقوة روحية يتغلب بها على مشقة الدعـــوة إلى الله ، فما دام المؤمن قد عرف الله فهتف به وجدانه وخشعت له جوارحه ، ومـــا دام قد استقام على أمر هذا الإيمان فلم يلبسه بظلم و لم يشبه بأى لون من ألوان الشرك ، فقد أصبح سالكا لطريق الله ، وأصبحت نيته خالصة لوجه الله ، ومن كان كذلك فإن الله لا يتخلى عنه ولا ينساه ﴿ إن الذين أمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخـــر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ [2] .

والإنسان فى هذه الحياة يسير وهو يتحسس خطاه ويقدر لقدميه موضعها علـــى الطريق ، لأنه دائما مشدود الأعصاب يتوجس الشر من المجهول الذى يحيط به ، ويتوقع الخطر فى الطريق الممتد أمامه ، من ثم فهو خائف لا يطمئن ، وقلق لا يهدأ ، وليس لــــه مصدر يهديه الأمن ويهبه الاستقرار ، وهذه احدى مشكلات العصر لأن الانسان فيـــه أصبح عالما قائما بذاته منطويا على نفسه ، وأصبحت غايته أن يبنى نفسه وإن كان ذلك البناء على انقاض الآخرين ، وفى مثل هذا العالم لم تنقطع اسباب المودة وتنكمش الروابط ، وينحصر الوصول إلى الغايات فى وسائل مادية مرتبطة بأسباب الارض مبتوتـــة الصلـــة بأسباب السماء ، فإذا عزت هذه الوسائل على السالكين ضاعت منهم الغايـــات الـــتى يصبون اليها ، وعميت عليهم الأهداف التى ينشدونها ، وهى فى حد بذاتها غايات ضيقة واهداف محدودة.

ومن ثم يسود الخوف فيسيطر على النفوس ، ويحكم اعمال النـــاس ، ويلـــون تصرفاتهم ولكن الاسلام يأتى فيرتفع بأعمال المسلمين ويسمو بغاياتهم ، فالأعمال المقبولة

---

[1] الطـــور : ٤٨ .

[2] يونـس : ٩ - ١٠ .

هى الأعمال الصالحة ، والأيدى التى تعمل هى الأيدى النظيفة ، ثم يكون الله سبحانه وتعالى غاية كل عمل ووراء كل نية ، وعلى قدر شرف الغاية يكون شرف الوسائل ، فإذا كان الله غاية المؤمن فى كل أعمال فهو يسير فى الطريق ثابت الخطوات ، مطمئن الخاطر واثقا بتوفيق الله .. إن حقق هدفه أحس بالأمن لوعد الله .. وإن لم يحققه رضى لأن أزمة الأمور بيد الله ﴿ وكل شئ عنده بمقدار ﴾ [1] .

ومن هنا يعلم الرسول ﷺ اتباعه درسا فى حسن الثقة بالله والرضا بقضائه فيقول (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز . وإن اصابك شئ فلا تقل : لو انى فعلت كذا وكذا .. ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن "لو " تفتح عمل الشيطان) فلا تطير نفس المؤمن شعاعا إذا قصر به الطريق ، ولا تطير نفسه فرحا إذا واتته النعمه وإنما هو صابر فى الأولى شاكر فى الثانية ، ليس كمن وصفهم الله بقوله ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصيبهم سيئة يقولوا هذه من عندك .. قل : كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ [2] .

وتحرص الآيات على نفى صفتين عن المؤمنين المتوكلين على الله وهما الخوف والحزن .. فالخوف يشتت شمل الانسان ويبدد ملكاته فلا يجيد عملا من الأعمال ، والحزن يقبض صدره ويشغل نفسه ويغلق أمامه أبواب الحياة .

يخاف الإنسان ان يبدأ الطريق ، ويخاف ان يزاحمه الناس إن هو بدأ ، ويخاف من الفشل ان انتهى عن العمل وترقب النتيجة .

ويحزن كذلك ان لم يحقق نجاحا ويحزن ان حقق بعض النجاح لا كل النجاح ، ويحزن ان شاركه الناس نجاحه وساروا فى نتيجته .

فهاتان الصفتان اذن - الخوف والحزن - مصدر قلق الانسان فى حياته ، ومبعث اضطرابه وفقدان أمنه ، ومن هنا تكفل الله عز وجل بإعفاء المؤمنين منهما لتصير

---

[1] الرعد : ٨ .

[2] النساء : ٧٨ .

نفوسهم نفوسا مطمئنه ، وليستقبلوا حياتهم بصدور منشرحه ومشاعر واثقة ، فهو يوحى إلى المؤمنين الذين قالوا ربنا الله ﴿ الا تخافوا ولا تحزنوا ﴾ ، وذلك يزرع الأمن فى قلوبهم والرضا فى نفوسهم فلا يعنيهم بعد ذلك ما نالته أيديهم أو ما ضاع منهم ، فما نالوه فهم ينفقونه فى سبيل الله ، وما ضاع منهم فهو مدخر لهم عند الله .

ورسول الله ﷺ يوفر على المؤمنين قلقهم على ارزاقهم فيقول فيما يرويه عمر رضى الله عنه (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله . لرزقكم كما يرزق الطير تعدو خماصا وتروح بطانا [1] .

معناه انها تذهب أول النهار ضامرة البطون من الجوع ، وترجع اخر النهار ممتلئة البطون من الشبع .

وليس معى ذلك أن الرزق مكفول بمجرد التوكل على الله وحسن الثقة فيه ، فإن السماء - كما قال عمر رضى الله عنه - لا تمطر ذهبا ولا فضه .

ولكن من حسن التوكل على الله ان يطلب الانسان الرزق من مصادره ومن حسن ثقته فيه أن يؤمن بالأسباب المؤدية إلى النتائج ، وما انتصر المؤمنون فى حروبهم الا لأنهم توكلوا على الله حق توكله فحملوا السلاح فى وجه عدوه ، وعملوا بقوله ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ [2] .

حب المؤمنين لله ورسوله

﴿ قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد

---

[1] رواه الترمزى : وقال حديث حسن .

[2] الأنفال : ٦٠ .

فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾ [1] . فى فطرة كل انسان ميل الانتماء ، واعتزاز بالأهل والعشيرة ، وحب المال والولد ، ولا ينكر الاسلام عليه ذلك ، فالله سبحانه هو الذى خلقه بهذه الفطرة وهو الذى ركب فيه غرائزه التى يحيا بها فيسعى على رزقه طلبا لاستمرار الحياة ، ويخوض الاخطار التى تحيط به رغبة فى البقاء ، ويثمر ماله اشباعا لغريزة الاقتناء وهكذا .

ولكنه رغم هذه الغرائز المركبه فيه ، ورغم حب التملك المختلط بفطرته ، فهو انسان له اشواقه وله شفافيته وسموه ، ولقد جاء الاسلام ليوجد فى الانسان توازنا بين ماديته وروحانيته ، بين غرائزه الدنيا ومشاعره السامية ، فلم يفصله عن بشريته ليحلق به فى السماء ، و لم يجرده عن روحانيته ليلصقه بالارض ، ولكنه خاطبه من منطلق هذين الاتجاهين ، وعامله فى ظل هاتين النزعتين .

فالمسلم مثلا يقرأ قول الله تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ [2] .

فيجد أن الله قد أباح له أن يتمتع بزينة الحياة ، وأن يأكل من رزق الله الحلال ، ثم يقرأ كذلك قوله تعالى ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغركم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ [3] . فيجد أن القرآن يذكره بيوم القيامة الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم ، ويحذره ان يغتر بزينة الحياة الدنيا وهى فانية فينسى الحياة الآخرة وهى باقية ،ثم يعود فيقرأ مثل قوله تعالى ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ [4] .

---

[1] التوبة : ٢٤ .

[2] الأعراف : ٣٢ .

[3] لقمان : ٣٢ .

[4] القصص : ٧٧ .

فيجمع بين طلب الدنيا وطلب الآخرة ، ويتوسط بين المتعه الفانية والثواب الباقى ويأخذ من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الهرم ، ومن الحياة قبل الموت .

فإذا فعل ذلك فهو الإنسان السوى الذى إراده الله وجعله فى الأرض خليفة ، يقيم ميزان الله على الأرض ، ويجعلها مزرعة يأكل منها ، ولكنه وهو يأكل ويطعم ذريته لا ينسى ان الدنيا كلها مزرعة للآخرة . لأن الإنسان فى خلال إندفاعه فى زحام الحياة ، وفى حرارة طلبه للقمة العيش قد ينسى نفسه فيجعل هذا الاندفاع هو الغاية ، ويجعل الرزق الذى يحصل عليه هو الهدف النهائى الذى يسعى اليه .

وهو فى انحصاره فى هذا الافق الضيق يرتبط بأهله وعشيرته ارتباط تعصب ، ويحب ماله وتجارته حبا طاغيا ، فيتحول سعيه على الرزق إلى حب ممقوت ، ويتحول حبه لذويه إلى أنانية مذمومة .

وهنا يذكره القرآن بأن الله هو الرازق لما يسعى اليه من مال ، وهو الخالق لمن يحبهم من الأهل والولد ، وهو الجدير بأن ينتهى اليه السعى كله ، وبأن يتعلق به الحب كله .

إن الله عز وجل لم ينكر على الناس حرصهم على المال ، و لم يؤاخذهم على مجرد حبهم للأهل والولد ، فهذا من حظوظ الدنيا ولذاتها الغريزية ، ولكنه - سبحانه - رتب المؤاخذة على تفضيل هذه الحظوظ والشهوات الدنيوية فى الحب على حب الله ورسوله .

فحب الابناء للآباء شئ من غرائز النفس وشعورها ، والولد بضعة من أبيه يرث بعض صفاته الجسدية والنفسية والخلقية ، وتقترن صورة الوالدين فى خيال ولدهما بكل محبوب لديه فأمه مثال على الحب والرحمة والحنان ، وأبوه مثال على العظمة والقدرة والإجلال .

ولقد كان العرب يتفاخرون بآبائهم فى أسواقهم وفى مواسم الحج حتى قال الله تعالى ﴿ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا ﴾ [1] .

---

[1] البقرة : ٢٠٠ .

ولم يأت القرآن لينهى الأباء عن ابنائهم ، أو الأبناء عن حب آبائهم ، ولكنـــه يحذرهم ان يكونوا أحب اليهم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، ولا تعارض بين الحبين فإن حب الإنسان لإهله وولده فى نطاقه المشروع حب لله وإجلال لقدرته التى اودعت فى النفوس والمشاعر وفى القلوب الحب ، ولقد بين القرآن الكريم ان المال والبنين زينة الحياة الدنيا ، والله لم يحرم الزينة التى اخرجها لعباده ، ولكنه ارتفع بهممهم وعواطفـــهم مــن التعلق بهذه الزينة إلى الاعتراف بفضل صاحبها سبحانه ، حتى يكون الاتجاه صحيحـــا ، والحب فى مكانه المناسب ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا .. والباقيات الصالحات خـــير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾ [1] . ومعنى ذلك أن الاعمال الصالحة التى يبقـــى ثوابهـــا للإنسان بعد الحياة الدنيا خير من زينة المال فيها ثوابا ، وخير من البنين فيها املا ، وقـــد يحب الوالدان ولدهما للأمل فى نصرته والإعتزاز به ، وقد قيل لبعض الحكماء : أى ولك أحب اليك ؟ فقال : صغيرهم حتى يكبر ، وغائبهم حتى يحضر ، ومريضهم حتى يبرأ .

وإذا ظل هذا الحب احساسا نفسيا تغذيه مشاعر الانسان وتحرسه عاطفته فـــهو من باب العاطفة الحانية والحب الفطرى ، اما إذا زاد ففيه الخروج وفيه التعارض بين حق الله وحق الإنسان .

ولقد ضرب القرآن الكريم للإنسان مثلا فى ذلك ، حيث صور الرجل الصـــالح وهو يعلم موسى ، فيقتل الغلام ثم يفسر ذلك لموسى بقوله ﴿ وأما الغلام فكـــان ابـــواه مؤمنين فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خير منه زكاة وأقرب رحما ﴾ [2] .

وليس معنى ذلك ان يقتل كل انسان ولده إذا ازداد حبه له حتى تفرغ عاطفتـــه لحب الله ، ولكن العبرة فى ذلك ان يعتدل كل والد فى حب أولاده ، والا يلهيـــه هـــذا الحب فيجعله ينسى صاحب النعمة ، وهو إن فعل ذلك جعل الهه هواه ، وعبـــد أهلـــه

---

[1] الكهف: ٤٦ .

[2] الكهف : ٨٠ - ٨١ .

وولده من دون الله ولكنه ان ربط حبه الكبير لله بحبه المحدود للولد ، لم تبطره النعمة إذا حازها ، و لم يقتله اليأس إذا فقدها ، ولكنه يؤمن بأن لله ما اعطى ولله ما أخذ ، وكل شئ عنده بمقدار .

ولقد يكون حب الزوجية نوعا خاصا من شعور النفس ، فهو الذى يزرع فيها الطمأنينة والسكن ، وهو الذى يمتن الله به على عباده فى قوله ﴿ ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ [1] . وهو الذى يتحد به بشران فيكون كل منهما متمما الاخر ينتجان باتحادهما بشرا مثلهما ﴿ وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾ [2] .

ففى ظل الاحساس بنعمة الله يكون هذا الحب ، فنعمة الله فى التأليف بين زوجين متباعدين من آياته ، ومن أجل ذلك يختم القرآن هذه الآية بقوله ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

وتناسل الذرية من هذا الزواج أيضا علامة على قدرة الله سبحانه ﴿ وكان ربك قديرا ﴾ .

ولقد عرض القرآن كذلك لإلوان من حب الإنسان وتعلقه ، كحبه للعشيرة ، وهو حب عصبية وتعاون وإعتزاز ، ويكون على أشده فى أهل البداوة حتى يصل إلى درجة التناصر بالحق والباطل ، ولقد اضعف الاسلام هذه النعرة بالدعوة إلى الحب فى العقيدة والمساواة بين المسلمين فىأخوة الاسلام ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ [3] .

وحب الأموال المقترفة - المكتسبة - أقوى من حب الأموال الموروثة ، لأن عناء الإنسان فى اقترافها يجعل لها فى النفس منزلة خاصة . وحب التجارة وحب المساكن وغير

---

(1) الروم : ٢١ .

(2) الفرقان : ٥٤ .

(3) الحجرات : ١٣ .

ذلك من أنواع الحب ظواهر طبيعية فى نفس الإنسان ، ومن شأنها ان تشده وتلهيه وتنسيه ، لكن حب الله تعالى فوق كل حب ، لأن كل شئ محبوب فى الوجود من صنعه وفيض احسانه ، فيجب على المؤمنين ان يوجهوا حبهم إليه ، وتعلقهم به وعبادتهم له ، فإنه سبحانه هو خالق الحب ، وانه سبحانه هو المعبود ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا اشد حبا لله ، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب ان القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب ﴾.[1]

علاقة المخلوق بالخالق

معصية العبد وتوبة الله عليه

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك إعتدنا لهم عذابا أليما ﴾ [2] .

لقد قال بعض الحكماء : إن الله ركب الملائكة من عقل دون شهوة ، وركب الحيوانات من شهوة دون عقل ، وركب الإنسان من العقل والشهوة ، فمن غلب عقله على شهوته فهو كالملائكة ، ومن غلبت شهوته على عقله فهو كالحيوان وبقى أن نقول فى مجال هذه القسمة : إن من وازن بين عقله وشهوته وعدل بينهما فهو إنسان ، وهو المخلوق الوسط بين الميل المادى والسمو الروحى .

والله الذى خلق الإنسان وسواه أعلم به ، فقد خلقه من طين ، ثم نفخ فيه من روحه ، وهو بهذا الطين قد يشده الذنب وتجذبه الخطيئة ، وبهذه الروح يرتفع درجات إلى عالم الملائكة .

---

(1) البقرة : ١٦٥ .

(2) النساء : ١٧ - ١٨ .